بين الفهم والاجتهاد

المعـــانى شائعة
ولا تجوز الملكية فيهـا
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

كتب ناقد أديب فى الرسالة الغراء مقالاً عنوانه من عجائب الاجتهاد ، يسجل فيه بعض المعانى التى أخذها الدكتور بشر فارس لمسرحيته من ديوان الأستاذ العقاد ، وديوان الشاعر الأستاذ على محمود طه المهندس

وهذا الاتهام — وأعنى اتهام الشعراء بالسرقة والأخذ — قديم منذ اللحظة التى نشأت فيها حركة النقد الأدبى . وهى حركة ترجع إلى العصر العباسى حينما استطاع الذوق الأدبى أن يتكون . ومن أبطال هـذه الحركة الآمدى صاحب الموازنة وابن رشيق صاحب العمدة وقدامة بن جعفر صاحب نقد النثر ونقد الشعر وغيرهم

ولما استوت علوم البلاغة ووضعت لها القواعد والأصول ، استطاع النقد الأدبى أن يجد فيها سنداً يستند إليه . وأفردت فصول خاصة بالمعانى والسرقات الشعرية

والواقع أنه من الصعب أن يستقصى المعنى الواحد ويُتتبع ويرد إلى مخترعه أو مفتض عذرته . وقد حاول هذه المحاولة أبو هلال العسكرى فى كتابه ديوان المعانى ، ونجح — إلى حد ما — فى جمع المعـانى الواحدة فى سمط واحد مع التدرج فى استعمالها ، ووجوه الحسن فى ذلك الاستعمال وهل كان الآخذ مُفضِلاً على المأخوذ منه أم مساوياً له أم مقصراً عن بلوغ شأوه

واشتط بعض البلاغيين فى هـذا الباب فوضعوا للسرقات الشعرية أسماء كثيرة كالمسخ والسالخ والنسخ وغيرها . وكأنهم — سامحهم الله — جعلوا أسبقية الزمان سبباً فى الاتهام . فالشاعر التالى يعد فى نظرهم آخذاً أو سارقاً إذا اتفق له معنى مما يكون قد اتفق لشاعر سابق . وقد يكون الشاعر المتهم بالأخذ أو السرقة أو السطو — أو ما شئت أن تسميه — بريئاً من ذلك كله . وقد يكون للمصادفة وحدها فضل اتفـاق الخاطرين وورودهما على معنى واحد

ومثل الذى يقال فى الشعر يقال فى النثر ؛ فمن الظلم أن يتهم دانتى صاحب الكوميديا الإلهية بالسطو على رسالة الغفران للمعرى لاتفاقهما فى كثير من الأفـكار وأسلوب التحليق فى السموات ، كما أنه من الظلم أن يتهم قصصى بالسرقة من قصصى آخر لمجرد اتفاق الفكر بين الـكاتبين

نعم فى الأدب العربى كما فى أدب كل أمة جماعة من اللصوص الذين يحبون أن ينسب دائماً فضل غيرهم إليهم . وهذا النوع من اللصوصية جرىء كل الجرأة ، لأنه لا يستحى ولا يخشى النقد إذا ما ضبط ... ولـكن الغالب فى هذا النوع أنه يتوارى متى كشف للناس أمره وتبين للناقدين زيفه

وهذا النوع لا يعنينا أن نكتب عنه لأنه لا يستحق الكتابة قدر استحقاقه العقاب . أما ما نقصد إليه فهو هذه المعانى الزاخرة المشتركة بين النفوس الإنسانية التى تعد بالملايين ... هذه المعانى التى تدور على بعض النفوس ، وتشترك فى بعض الخواطر ، ويختلج بها بعض الصدور ، فإذا ما سجلها بعضهم بالكتابة سمعت صيحات عاليات تنادى أن هذه سرقة ، وأن هذا المعنى لفلان دون فلان

رابعاً : لم يشر ألبتة إلى الاختلاف الواقع فى تعيين سنة وفاة الشابشتى . فبينما نرى أن ابن خلـكان (وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ بولاق) يقول إن وفاته كانت سنة ٣٨٨ هـ ، إذ نجد ياقوتاً الحموى (معجم الأدباء ٦ : ٤٠٧ طبعـة مرجليوث) يقول : إنه مات سنة ٣٩٩ هـ . والفرق ، كما لا يخفى ، ظاهر بين هذين التاريخين ولا يصح السكوت عنه

هـذا وأسأل الله تعالى أن يوفقنى فى القريب العاجل إلى إخراج هذا المصنف الجليل ، الذى هو جدير بكل عناية وأهل لـكل خدمة علمية ، ومن الله الفلاح

(بغداد) كوركيس عواد

وليس غريباً أن يتفق الشاعران أو الكاتبان فى الفكرة الواحدة أو أن يقع فى بعض النفوس ما يقع فى البعض الآخر . وهذا النبع العظيم من التفكير الإنسانى لا بد أن يجد له مسيلاً فى نفوس كثيرة متشابهة . فكثيراً ما نرى بعض الناس فى أحاديثهم الخاصة تتفق أفكارهم الخاصة فى لحظة معينة بذاتها . كأنما ألهم كل منهما الرأى إلهاماً

وكثيراً ما نسمع بين المتحادثين هذه العبارة المألوفة (عمرك أطول من عمرى) وهى عبارة لا نحاول أن نثبت بها قضية نذهب إليها ؛ وإنما نسوقها فقط لنبرهن بها على ما يجرى بين المتخاطبين من توافق فى الأفكار أو الألفاظ ، كما يقع فى كثير من الأحيان

والسرقة هنا أمر عظيم وحادث جليل ؛ والاتهام بها ليس من السهولة بحيث يستطيع توافق الأفكار أن يؤيده . أما سرقة الماديات فمن السهل إثباتها وإقامة الدليل عليها ، لأنها فى أبسط تعبير انتقال شىء من يد مالكة إلى يد مغتصبة . فملكية المالك هنا ظاهرة واضحة مشهود عليها بألف دليل ودليل ... واغتصاب السارق لها واضح ظاهر مشهود عليه بألف دليل ودليل

أما ملكية الأفكار فمن الصعب إثباتها لوقوع الفكر دائماً على الشيوع لا على الاختصاص . والذين يضيقون علينا سبل التفكير والإنتاج والاجتهاد إنما يضيقون على أنفسهم ، لأنهم فى كثير من الأحوال غرض يُرمَى كما يَرْمون . والواقع أن السرقة ـ بمعنى اتفاق الأفكار ـ موجود فى كل نفس ، لأن كل نفس بشرية يجرى عليها الإحساس والعواطف والانفعالات وهى أمور مشتركة فى الإنسانية جميعاً

وقد يكون وقع فى مسرحية بشر فارس من الأفكار ما وقع فى إحدى قصائد العقاد . وليس فى ذلك مطعن على بشر ولا مفخر للعقاد

وقد وقع أكثر من هذا للفحول من كتاب الغرب فلم ينقص ذلك من مقامهم العلمى أو الأدبى ، ولم يحجم التاريخ عن وضعهم فى أماكنهم الصحيحة من سجل الخالدين . ولعلك تعجب إذا علمت أن موليير القصصى الفرنسى العظيم اتُّهم ـ فى حياته ـ بالسطو على قصص غيره من المعاصرين والسابقين ، فكان رده اعترافاً منه بالسرقة إذ يقول : « إننى إذا وجدت شيئاً نافعاً فلا أحجم عن أخذه للانتفاع به » . كما كان « تشسترتون » زعيم الحركة الرجعية فى انجلترا فى العصر الحديث يُتَّهَم من برنارد شو وويلز بالسطو على معانى الصغار من كتاب الصحافة البريطانية

والعقاد فى شعره وفى كتابته غنى بالمعانى ، إلا أن هذا الغنى لم يكن ميراثاً خاصاً به ؛ فهو ولا شك قرأ كثيراً وأفاد كثيراً مما قرأ . ولا شك أن رأسه يزدحم بكثير من المعانى التى تعرض له فى مطالعاته .

فليس ينقص من قدر العقاد أنه يشترك فى كثير من معانيه مع كثير غيره من كتاب الإنسانية الذين يحسون إحساسه ، ويتأثرون تأثره

وعبد الرحمن شكرى يعترف فى مقال له بمقتطف مايو سنة ١٩٣٩ بأنه كان يحتذى شعراء الصنعة العباسية . فما قال منصف إنه سارق ، ولكن قال المنصفون إنه متأثر . ولم يعب عليه المرحوم حافظ ابراهيم هذا التأثر (الاحتذاء) وهذه المعارضة بل أثنى عليهما . ولما سافر شكرى إلى انجلترا كان احتذاؤه للشعر الإنكليزى فى توليد الموضوعات الجديدة لا فى أساليبه

على أن الشاعر أو الكاتب لا يستغنى فى إنتاجه عن التأثر — المقصود أو غير المقصود — بما يقرؤه ، ولا يسلم من ذلك التأثر لجل من الشعراء أو مبرز من الكتاب . فالأستاذ أحمد حسن الزيات قد تأثر فى مقاله « بين المهاجرين والأنصار » (الرسالة عدد ٣٦٨) بفكرة للأستاذ أحمد أمين فى مقال سابق بالثقافة . فأحمد أمين يصرح بأن الموت بالقنابل فى القاهرة أفضل من الموت بالكروبات فى الريف ، والزيات يجرى على لسان المهاجرين هذه العبارة (إن الموت بالشظايا على دفعة ، أخف من الموت بالجراثيم على دفعات) (١)

وقد يكون — والعلم عند علام الغيوب — أن الزيات لم يطلع على مقال أحمد أمين المنشور بالثقافة

• • •

(١) هذا معنى من المعانى الواقعة أحسه كل مهاجر فى كل قرية ، ولكل لسان فى التعبير عنه صورة خاصة ؛ والصورة التى كتبناها قد سمعناها فلم نقرأها ولم نبتكرها (الزيات)